وهل أدلّ على ندرة الحق والخير والجمال فى عالم الإنسان من كونه جعلها مثلا أعلى ، ومطمحاً من المطامح البعيدة ، وأملاً من الآمال النائية ؟ ولو كانت خلائق راسخة فيه ، وكانت طبيعة ملازمة له ، ما جعلها كذلك . فلو كان صادقاً ما كان يمدح الصادق بصدقه ، ويعجب منه أن لازمه وأقام عليه . ولو كان وفياً ما كان ثالث المستحيلات عنده ... الخلّ الوفىّ ، إنما يطمح المرء إلى ما لا يملك ، وأن مائة الدينار من الذهب هى (مثل أعلى) للفقير المفلس ، ولكنها عند الغنى حقيقة تافهة ...

ألا إنى أومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشرّه ، ولكنى لا أومن بانسانك هذا ؟ فهل علىّ من الله من شى ؟

إذن فليقل الناس عنى ما شاءوا !

على الطنطاوى

الترجمة والمترجمـــون

للأستاذ د . جونسون دافيز

الحرب بطبيعتها أداة تخريب ودمار ، ولكن لها فوائد يجب أن توضع فى الكفة الأخرى من الميزان . فهى ترغم الناس على أن يشمروا عن ساعد الجد وينبذوا التكاسل والتراخى فى نواح كثيرة . وبلادنا (بريطانيا) قد جنت من هذه الحرب فائدة جليلة : هى أنها صارت أقل انعزالا وانكماشا فى حدود جزيرتها مما كانت من قبل . ذلك أن كثيرا من الأجانب قد لاذوا بسواحلها ووجدوا فيها معقلا يحميهم من الاضطهاد والعدوان . والإنكليزى العادى ، والانكليزية العادية ، باختلاطهما بهؤلاء الأجانب ازداد فهمهما للأمم الأخرى وعطفهما على غير ملتهما من الملل . ومن الدلائل على هذا ذلك العدد الضخم من الكتب التى صدرت خلال الحرب عن الدول والأمم الأجنبية . كما ازداد الاهتمام بالترجمة من اللغات الأجنبية ، الألمانية ، والبولندية ، والفرنسية ، والتشيكية ، ثم الروسية طبعاً . وأغلب هذه الكتب بطبيعة الحال قد ألفت قبل الحرب ، لأنه لم يصل من أوربا التى احتلها الألمان إلا العدد الضئيل من الكتب . ومن هذه كتاب جدير بالذكر هو « صمت البحر Le Silence de la Mer » ، ألفه ڤركور Vercors . وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة فى مطابع النشر السرية فى فرنسا ، بالرغم من فداحة الخطر ، ثم هربت منه نسخة إلى الخارج . وقد ظهرت له ترجمة إنكليزية بعنوان « أطفئ النور Put out the Light » . هذا الكتاب الصغير — فهو فى الحق لا يزيد عن قصة قصيرة — يصف موقفا لا بد أنه تكرر فى مئات الألوف من البيوت فى جميع أنحاء فرنسا المحتلة ، فهو يصف أسرة فرنسية صغيرة ، مكونة من رجل هرم وابنة أخيه ، ترغم على إيواء ضابط ألمانى . وهو موقف يسهل جدا اتخاذه فرصة للدعاية الرخيصة ، ولكن ليس من هذا أتفه قدر فى هذا الكتاب ، فهو كتاب فن ، كتاب فن خالص . فالألمانى لا يوصم بأنه مجرم أثيم ، والفرنسى ليس بطلا . بل الألمانى رجل مثقف ، طيب بطبيعته ، ومأساته موصوفة بعطف بديع ، وقد ترك إلى القارئ أن يستنتج ما يريد من النتائج . فهذا الكتاب ، على الرغم من ضآلة حجمه من المؤلفات القليلة عن الصراع الحاضر التى يمكن أن تعد أدبا رفيعاً .

هذه المسألة ، مسألة الترجمة من اللغات الأجنبية ، هى فى اعتقادى ذات أهمية بالغة فى بناء أدب الأمة . فهى هامة فى المحل الأول لأننا إذا أردنا أن نعرف شيئا عن أمة ما فخير ما نعمله هو أن نقرأ كتاب هذه الأمة . ولكن أهميتها ترجع فى أغلبها إلى هذه الحقيقة : إنه كما أن الأفراد تختلف الطبائع ، كذلك الأمم ، على نطاق أوسع ، تختلف الخصائص ؛ فالأمم ، لاختلاف أقطارها ودرجات تعليمها وأنواع ثقافتها وتربيتها ، لها وجهات نظر فى المشكلات اليومية ، ومشكلات الحياة والموت ، تختلف إحداها عن الأخرى بعض الشىء . وهكذا تجلب الترجمة دما جديدا إلى أدب الأمة ، وكثيرا ما تكون مصدر إلهام ذى آثار عميقة .

واليوم انبعث من جديد الاهتمام بالروائيين الروس الأعاظم حتى لم يعد ممكنا العثور فى المكاتب على نسخة من روايتى تولستوى العظيمتين « آنا كارنينا » و « الحرب والسلم » . وإذا أسعد الحظ امرءاً باقتناء نسخة ظل أصحابه يستعيرونها منه بلا انقطاع . ومن حسن الطالع حقا العثور على كتب دستيوفسكى

أو تشيكوف أو تورجنييف أو غيرهم من عظام كتاب الروس القدماء برغم أن كتبهم يتكرر طبعها .

قرأت مرة فى أحد كتب النقد الأدبى أن العمل الأدبى ذا الأثر الأعظم فى إنكلترا فى هذا القرن هو ترجمة كنستانس كارنت Constance Garnett للروائيين الروس الأعاظم . هذا تقرير خطير ، وهو يدل على مقدار دينا لهذه المرأة الملهمة التى وقفت حياتها على ترجمة مؤلفات الآخرين حتى يقرأها ويقدرها أبناء وطنها . وقلما ينال المترجم مثل هـذا الثناء . ومن الثابت أنه لا يكاد يوجد اليوم روائى لم يتأثر تأثرا عميقا بكتابات عظماء الروس . فكم من هؤلاء الذين تأثروا هذا التأثر ودانوا للمؤلفين الروس هذا الدين الجليل كانوا يجدون الفراغ والمزيمة والصبر الكافية لتعلم اللغة الروسية الصعبة حتى يستمدوا هذا الإلهام بأنفسهم . كم منهم كان يفعل ذلك لو أن كارنت لم تقم بما قامت به ؟ إن فرجنيا وولف Virginia Wooff ، هذه الروائية والناقدة البعيدة الصيت قالت فى إحدى مقالات كتابها النقدى « the Common Reaber » : كل دراسة للرواية الإنكليزية الحديثة مهما كانت عامة موجزة يجب أن تذكر التأثير الروسى ، فإذا ما ذكر الروس لم يكد يتمالك المرء نفسه من الإفاضة فى التحدث عنهم ، لأنه من إضاعة الوقت أن يتحدث عن رواية غير رواياتهم . » فهل بعد هذا ثناء على الرواية الروسية ؟ والمرء حين يقرأ الأدب الروسى الحديث تأخذه الدهشة والاستياء إذ يراه مقفراً كل الأقفار من هذه العظمة ، من هذا الفهم الشاسع البعيد الذى فهم به الروائيون القدماء الدنيا وأبناء جلدتهم من البشر . ويظهر أن الروس المعاصرين ، مع تفوقهم وامتيازهم فى فن الرقص التمثيلى والسينما والمسرح ، قد أجدبت عقولهم فى فن الكتابة . حقاً إن روسيا السوفييتية لها كتابها ، وكثير منهم قد ترجموا إلى الإنكليزية ، ولكن أحداً منهم ليس فى عظمة تولستوى أو دستيوفسكى ، بل لا يقرب من هذه العظمة أقل قرب . من الصعب تعليل هذا ، ولكن العلة فى نظرى قد ذكرتها فرجينا وولف فى مقالة أخرى فى نفس الكتاب حين قالت إن الخاصية المميزة للأدب الروسى هى انحصارهم الكاتب الروسى بروح الإنسان . فدستيوفسكى مثلا لا يهتم كثيراً بوصف حجرة أو منزل ، بل لا يهتم بالصفات الجسدية لشخصياته ، فهو مهتم بأرواحهم ، ويوجه كل همه إلى وصف روح كل شخصية من شخصياته وكيف تقلبها واضطرابها . فالعمل الأمر إذن هو أن الروح الروسية القلقة قد وجدت فى نواح كثيرة ملجأ للراحة والاطمئنان فى النظام الجديد ، النظام الشيوعى ، وبذلك قل اضطرابها وخفقانها عن ذى قبل أضف إلى هذا أن التقلقل السياسى الذى عانته روسيا فى السنين الخمس والعشرين الماضية لا بد أنه كان له أثر سيء على الأدب . لقد قرأت مجلدات عديدة من الأقاصيص القصيرة الروسية الحديثة ولم أجد بها إلا القليل مما يعد ممتازاً ، وكثير منها دعاية لا أدب

ولكن لنعد إلى الروائيين الروس القدماء . كم من الناس الذين قرأوا تولستوى ودستيوفسكى والآخرين يتذكرون اسم المترجم الذى مكنهم من قراءة هذه الروايات ؟ الترجمة فن أبعد ما يكون عن العمل الآلى : هى تتطلب أكثر من مجرد معرفة اللغتين . هى عمل خالق بلا شك ، والمترجم يستحق فى الأوساط الأدبية من الشهرة أكثر مما يناله اليوم . المترجم لا ينال إلا نصيباً تافهاً من الجزاء المالى ، ولا يكاد ينال شيئاً من الثناء أو الذكر ، مع أن عمله فى الدرجة القصوى من الأهمية ، وحتى أعاظم الكتاب لم يعدوا عاراً عليهم أن يزاولوا هذا الفن — فما من شك أن الترجمة فن . فالشاعر الإنكليزى المشهور پوپ ترجم أوديسة هومير من اللغة اليونانية ، وإن كان لا بد من الاعتراف أن پوپ لم يكن المثل الأعلى للمترجم ، إذ أن ترجمته وإن كانت فى حد ذاتها عملا أدبياً فائقاً ، فهى تحتوى من پوپ على قدر أكبر مما تحتويه من هومير . حتى إن أحد معاصريه هنأه على عمله قائلا: « قصيدة بديعة يا پوپ ، ولكن ينبغى ألا تسميها هومير » . والشاعر الفرنسى بودلير ترجم المؤلفات النثرية للكاتب الأمريكى إدجار ألان پو إلى الفرنسية ، وترجماته تعد درراً من النثر الفرنسى بل إن شعره لم ينل فى حياته إلا القليل من النجاح ، حتى إنه كان يصف نفسه مفتخراً بأنه « مترجم پو » . والروائى الفرنسى العظيم مارسيل پروست بدأ حياته الأدبية بترجمة بعض مؤلفات رسكن من الإنكليزية . وكلا بودلير وپروست يقدم مثالا رفيعاً لأدباء استمدوا إلهاماً عظيما من كتابات مؤلفين قاموا بترجمتهم

ولورنس بلاد العرب قام بترجمة نثرية للأوديسة، بينما قام الروائى د . ه . لورنس الذى قد يعد أعظم روائيى انكلترا فى القرن العشرين بترجمة روايات إيطالية عديدة ، وإحدى هذه وهى رواية Mastro—Don Gesualdo لمؤلفها جوفانى فيرجا ، تستحق من الشهرة أكثر مما لقيت ، ولورنس نفسه قد وصفها بأنها : « كتاب عظيم مخلد ، إحدى أعظم روايات أوربا » . وهناك رجل آخر أسدى إلى الأدب يداً بيضاء بترجمته ، وهو سكوت منكريف الذى ترجم رواية بروست الضخمة إلى الإنكليزية ، والترجمة الإنكليزية فى اثنى عشر مجلداً ، قام هو بترجمة جميعها إلا المجلدين الأخيرين ، إذ حال الموت بينه وبين إتمام هذا العمل العظيم . ويقال إنه فى زمن ما كانت عادة أغلب الناس فى باريس أن يقرأوا رواية بروست لا فى الفرنسية الأصلية ، بل فى الترجمة الإنكليزية . فهل يطمع مترجم فى ثناء أبلغ من هذا الثناء ؟

إن ترجمة الكتب الأجنبية كان لها على أدبنا الإنكليزى آثار عظيمة بالغة ، وأبرز مثل لهذا هو الكتاب المقدس ، فللكتاب المقدس فى الإنكليزية ما للقرآن الشريف فى العربية ، هو ليس أساس التفكير الدينى فحسب ، بل هو قد صار قسما من الأدب ، ومثالا للكتابة النثرية الفائقة

بل إن التأثيرات العظيمة التى تأثر بها الأدب الإنكليزى فى مختلف العصور كانت كلها راجعة إلى الترجمة . إليك مثلا الترجمات المختلفة للقرآن ، أول ترجمة للقرآن إلى لغة أجنبية كانت ترجمة لاتينية قام بها فى سنة ١١٤١ بطرس رئيس دير كلونى ، وعاونه ثلاثة متعلمين مسيحيين وعربى ، وظهرت أول ترجمة انكليزية فى سنة ١٦٤٩، ومن يومها طبعت ترجمات عديدة أخرى أشهرها ترجمات سيل وردويل وبالمر ومرمدبوك بكثال ، وهذا الأخير هو انكليزى مسلم ، ألف عدداً من الروايات والقصص عن الشرق

ولكن الكتاب العربى الذى كان له أبلغ الأثر على أوربا هو ألف ليلة وليلة . وقد ظهرت له ترجمتان إنكليزيتان جيدتان قام بهما إدوارد لين وسير ريتشارد بيرتون ، وإن لم تكن هاتان أول ترجمة للكتاب . والمستشرق البريطانى هـ . ا . ر . جب يقول عن أثر هذه الترجمات الأولى لألف ليلة وليلة : « ليس من شطط القول أن نقول إن هذه الترجمة أمدت الكتاب الشعبيين بالهدف الذى طالما نشدوه ، وإنه لولا ألف ليلة وليلة لما وجد روبنصن كروزو ، بل ربما لم توجد رحلات جليفر » .[1] بل قد قال بعضهم إن دانييل ديفو استمد إلهام روبنصن كروزو من قصة حى بن يقظان التى ألفها ابن طفيل ، وكان قد ترجمها إلى اللاتينية المستشرق الإنكليزى القديم پوكوك . ويجب أن نذكر فى هذا الصدد أيضاً ترجمة فتزجرالد لرباعيات عمر الخيام ، وهى إن كانت ترجمة شديدة التصرف فقد كان ملهمها الشاعر والنجم الفارسى . كما قد زعم البعض أن رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى كان لها تأثير كبير على دانتى فى كتابه « الكوميديا الإلهية » . ومهما يكن من شىء فمن المحتمل أن عناصر إسلامية كثيرة توجد فى هذا العمل العظيم لدانتى وعن هذا يقول الأستاذ جب : « إن الاهتمام الذى كانت تتبع به الدراسات العربية فى إيطاليا فى زمن دانتى لا تجعل هذه النظرية أمراً مستحيل التصديق ، وإن لم يكن من المستطاع بعد إثبات هذا إثباتاً جازماً إلا فى الجزئيات . ولكن هذه النظرية نظرية جذابة ، وأقل ما يجعلها ذات جاذبية إنها لو صحت لازدادت عبقرية دانتى سمواً ، إذ تكون قد ألفت فى وحدة منسجمة رائعة بين التراث المسيحى والصوفى القديم العظيم ، وتجارب الإسلام الدينية ذات الغنى الروحى الزاخر . »[1]

أما عن ترجمة المؤلفات الأجنبية إلى اللغة العربية ، فنقول إن العرب قاموا بترجمات من اللغة اليونانية تعد من خير الأمثلة التاريخية على الفضل العظيم الذى يسديه المترجم إلى الجنس البشرى قاطبة . كثير من المؤلفات الطبية والعلمية الأصيلة التى ألفها عظماء مؤلفى اليونان قد ضاعت ، ولكن كثيرا من هذه المؤلفات المفقودة لا تزال موجودة فى ترجمتها العربية ، وهذا من حسن حظ العالم بأجمعه . ويمكننا أن نذكر من كبار مترجمى العرب أبا يحيى ابن البطريق ، وهو من أول من ترجموا من اليونانية ، وثابت بن قرة ، ولكن أشهرهم جميعا هو بلا شك حنين بن إسحق ، الذى كان يلقب بشيخ المترجمين . ومما يدل على علو مكانة الترجمة فى العصر العباسى الأول أن حنينا كان يعطى له راتب شهرى سخى ، وأن الخليفة المأمون كان يعطيه

(١) المقالة عن « الأدب » فى كتاب « تراث الاسلام » أكسفورد .

زنة كتبه المترجمة ذهبا . ومن الترجمات العربية التى أنقذت من من الفناء نصا مفقودا كتاب ابن المقفع « كليلة ودمنة » ، الذى كان أصله باللغة السنسكريتية ، والكتاب العربى مترجم من ترجمة فارسية للكتاب السنسكريتى ، وكلا الكتابين السنسكريتى والفارسى قد ضاعا ، حتى صارت الترجمة العربية أصل جميع الترجمات الموجودة الآن للكتاب فى كل لغات الدنيا . ومما يدل على الأثر العظيم الذى كان لهذا الكتاب أنه كان أحد المصادر التى استمد منها الشاعر الفرنسى لا فونتين قصصه الخرافية عن الحيوان .

ولقد كان للترجمة أثر عظيم فى النهضة الحديثة للأدب العربى ، ومحمد على نفسه قد أدرك ضرورة القيام بترجمة الكتب العلمية الفنية من اللغات الأوربية فأسس مدرسة للترجمة وجعل مديرها الكاتب القدير الشيخ رفاعة الطهطاوى ، وقد عرفت فيما بعد بمدرسة الألسن . وقد قام رفاعة نفسه بترجمة عدد كبير من الكتب الجدية من اللغة الفرنسية فى التاريخ والجغرافيا والفلك والقانون وغيرها من الموضوعات . وكان محمد على هو الذى بدأ إرسال البعوث العلمية إلى أوربا ، ويقال إنه عند رجوع الطلبة إلى مصر كان كل منهم يعطى كتابا فى الموضوع الذى درسه ويحبس فى القلعة ثلاثة أشهر حتى يترجم الكتاب إلى اللغة التركية . ثم تطبع هذه الكتب وتستعمل فى المدارس . فاذا جئنا إلى الأجيال الأخيرة تسارعت إلى أذهاننا أسماء رجال كثيرين خدموا الأدب العربى أجل خدمة بترجماتهم . فما لا شك فيه أن من أعظم الآثار على الأدب العربى الحديث الأثر الذى تركه المنفلوطى ، والجزء الأكبر من مؤلفاته ترجمة أو كتابة ألهمها الأدب الغربى . ولقد بلغ من شعوره بحاجة الأدب العربى إلى دم جديد أنه على الرغم من عدم معرفته هو باللغات الأوربية تكبد مشقة العثور على رجال يعرفونها وطلب إليهم أن يترجموا له الكتب الأوربية ثم يقوم هو بصوغها فى قالب عربى حر . حقا إن الكتاب المعاصرين قد أمطروا المنفلوطى بسهام نقدهم المر ، وهو نقد لا شك فى عدله ، وبخاصة مقالة العقاد عن المنفلوطى ، فكتابات المنفلوطى بها عيوب ونقائص كثيرة ، ولكن على الرغم من هذا كله فان أياديه على الأدب العربى الحديث يجب الايستهان بها . ومن المترجمين المعاصرين يمكننا أن نذكر أحمد حسن الزيات ، مترجم « آلام فرتر » ، والدكتور محمد عوض محمد ، مترجم « فاوست » لجوته ، ومحمد السباعى ، الذى ترجم إلى العربية كثيرا من روايات ديكنز كما نظم بالعربية رباعيات الخيام ، وحافظ ابراهيم الذى ترجم « البؤساء » لهيجو . ويلزمنا أن نذكر أيضا ترجمات احمد الصاوى فى « مجلتى » والعمل الذى تقوم به اليوم لجنة التأليف والترجمة . إلا أنه لا يزال أمام المترجم العربى كنوز زاخرة ، وبخاصة أن القارئ العربى والكاتب العربى فى يومنا هذا قد أخذ يزيد اهتمامهما بالقوالب الأدبية الرائجة الآن فى الغرب كالرواية والقصة القصيرة .

هذا وأحب أن أكرر أن الترجمة ليست عملا آليا بحال ، وأنها ليست مجرد وضع كلمة محل كلمة ؛ بل هى فن ، وهو فن ، لا يزال فى المهد صبيا . ولقد ظهر حديثا فى بلادنا عدة كتب تدور على فن الترجمة . وسأقتبس من أحد هذه الكتب القطعة الآتية التى تبين أهمية هذا الفن : « لا شىء يتحرك بدون ترجمة ؛ فالتجربة الإنسانية تتضمنها عبارات ثلاث : العواطف ، وطرق التأدية ، والفكر . فالعواطف (مثل الخوف الخ ...) لا تتغير طبيعتها ، أما الفكر وطرق التأدية فتتغير . فاذا حدث تغير فى الفكر أو طرق التأدية فلن يقدر له الشيوع والانتقال بغير الترجمة ، لأنه لكى يشيع يجب أن ينتقل من أمة إلى أمة ، أى من لغة إلى لغة . » (١)

إن العالم الحديث يدرك الآن أن الأمم ، كالأفراد ، يجب أن تتعاون إذا أرادت الظفر بالسلام والسعادة والرخاء . كذلك شأن الأدب . الأدب كالتجارة ، يجب أن يكون دائما فى حركة مستمرة ، يجب أن يكون فيه على الدوام دخل وخرج ، أخذ بين الأمم المختلفة . فالذى يقوم بوظيفة التاجر فى هذه المعاملات الحيوية هو المترجم .

[عن مجلة الأدب والفن الانكليزية]

د . هربرت راتير

(١) E. S. Bates : Intertraffic Jonathan Cape